القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

—٣—

﴿العظامية الانكليزية في القرن الثامن عشر﴾ : كتبنا هذا الفصل عن العظامية الانكليزية لانهُ يفسر الى مدى بعيد العظامية في الامم الاخرى — ومنها الامة العربية — في اكثر الاعصر التاريخية . والنظام العظامي الاريستوقراطي هو نظام متأصل في الانكليز وقد مثل دوراً من اهم ادوار حياتهم السياسية والاجتماعية . ولا يتلكأ العظاميون منهم ان ينسبوا كل المحامد التي تتغنى بها امتهم الى هذه الشكيمة العريقة في دمائهم والى ما بني عليها من نظام محافظ . وتتجلى القواعد التي قامت عليها هذه العظامية في ردّ الفعل الذي حدث في انكلترة من جراء الثورة الفرنسية الكبرى التي حدثت في سنة ١٧٨٩ فالاريستوقراطيون الانكليز استخدموا انواع الشدة في ابان تلك الثورة وعقبيها لاجتثاث كل حركة حرة من اصولها واستعصروا ادمغتهم لكي يؤلفوا فلسفة ترتكز عليها دعاويهم الطويلة العريضة في حق الحكم، ومعلوم ان قواعد الثورة الفرنسية قامت على استصراخ الادراك الانساني من اعماقه والاستناد الى مقتضيات الفهم السليم . بيد ان الاريستوقراطية الانكليزية لم تتنزل الى مقارعة الثورة على هذا الاساس ولا الى مجادلتها في هذه القواعد بل قالت بلسان (ادمند برك) خطيبها وكاتبها السياسي انها تأبى على الادراك الانساني ان يكون الاساس الصحيح للسياسة وعلى المنطق ان يكون المركز الذي ترتكز عليه فلسفتها ، واظهرت بكل ما اوتيت من عارضة وبلاغة شأن الوضع السياسي التقليدي المعنعن الذي تمثل في الاختيارات والتحازب المجموعة في قبضة طبقة من الحكام الوراثيين هي الطبقة الاريستوقراطية او هم «اهل الحل والعقد» كما في تاريخ الاسلام. فهذه الفلسفة التي قال بها (ادمند برك) يومئذٍ هي سرّ الحكمة الاساسية التي يبني عليها العظاميون المحافظون حجتهم في انكلترة الى يوم الناس هذا بل هي التي اشار اليها افلاطون في « الجمهورية » في القرن الرابع قبل المسيح

ولا مراء ان هنالك فرقاً واضحاً بين عظامية الانكليز اللينة هذه وبين عظامية الفرنسيين

القاسية التي كانت سبباً مباشراً للثورة . فالقارىء يذكر ان شكل الحكم في فرنسا يومئذ كان ملكياً من دونه طبقة اريستوقراطية تمتعت بالشيء الكثير من الامتيازات والمنافع من غير ان يكون لها سلطة سياسية ، وكانت ابواب هذه العظامية موصدة في وجه جميع الطامحين المستجدين ولو جمعوا ثروة طائلة في التجارة او الصرافة ، وكانت الاسلاب التي خولتهم امتيازاتهم ان يسلبوها من الناس ويتمتعوا بها عبئاً ثقيلاً فادح على صدور الفلاحين بكتلتهم والقل كاهلهم ، وكانت الضرائب فادحة تبذل بسخاء على الجيش لتأييد السلطة الوطنية والدفاع عن نفوذها ، وادى اعفاء الطبقة العظامية من الضرائب الى انتقال عاتق الصناعة والتجارة وزاد في اعباء الدهماء من الشعب . لذلك لم يندمج الرجال النابهون في الطبقة الحاكمة بل بقوا خارجها ليشتركوا في الثورة مع الفلاحين الجائعين المنهكين ومع العمال البائسين المستائين

اما في انكلترة فكان للعظامية سلطة سياسية نافذة عدا الامتيازات التي تمتعت بها ، ولكنها اظهرت من الحكمة والكياسة انها لم تعفر نفسها من الضرائب بتاتاً ولا اوصدت ابوابها دون الطامحين المستجدين من الرجال الناجحين سواء من صاهر منهم العظاميين فاتصل بهم او من نال حق الانتقال الى العظامية برخصة رسمية حصل عليها لمال جمّ جمعهُ في التجارة او الصناعة او الصرافة ، فهذا الموقف اعترف بشيء من الحق بكتسبه العامة بالثروة او المصاهرة او الجاه فيصبحون من اهل الحسب . وفوق ذلك فالعظامية الانكليزية لم تقف في البلاد وقفة سلبية انانية بل اشتركت في ترقيتها الاقتصادية بهمة ونشاط . وهذا جميعه مما حال دون اجتماع العناصر العدائية عليها كما حدث لفرنسا يومئذ فأدى الى ثورتها في حين احتفظت العظامية في انكلترا بمقامها وخرجت من جميع تلك العواصف الاوربية المزعزعة سليمة بمجرد اصلاح برلماني يسمى اصلاح سنة ١٨٣٢ ثم انتقلت الحكومة بالتدريج من سلطة نيابية عظامية كانت انكلترا اسبق الدول الى استتبابها الى سلطة عصامية ديموقراطية اصبحت شكل الحكم المطلوب في الدول الناشئة في القرن الثامن عشر . اما هذا الاصلاح البرلماني الذي حدث في سنة ١٨٣٢ فقد وسع حق الانتخاب حتى شمل الطبقات المتوسطة فقط فكان على طبقة العمال ان تنتظر حقها في الانتخاب الى ان قرّره البرلمان في سنتي ١٨٦٧ و١٨٨٤ ولكن انكلترا ام الوضع النيابي لم تصر ديموقراطية حقاً تتمتع جميع طبقاتها بالانتخاب الا يوم نال النساء هذا الحق بقرار برلماني في سنة ١٩١٨ بيد ان الاسعاف جاء متأخراً جداً فما وصل « الترياق من العراق » الا والطريقة الديمقراطية النيابية معبودة الرئيس وودرو ولسن وحجة الدول الغالبة على المانيا في الحرب العالمية — قد اقتحمتها طرائق اخرى ادعت الافضلية عليها وبارزتها في الميدان براز الند للند ؛ وزاد في الطين بلة ان اشراك النساء في الشؤون السياسية لم يحقق حلم الذين عقدوا عليه الآمال الكبار

وغني عن البيان ان القين الذي اظهرته الادارة الانكليزية على ذاك العهد حال دون وقوع الكارثة ، ويذهب بعض الاجتماعيين الى ان هذا التكيف في الانكليز او القابلية التي تنحني من غير ان تنكسر هي الخلة القومية التي حالت دون الثورات العظيمة في بلادهم في حين ان من طبيعة الفرنسيين التصلب التام وان يحاولوا التمسك بكل شيء الى ان يرغموا على ترك كل شيء ، هذا شأنهم في حربهم وسلمهم واحتلالهم وجلائهم وكل شأن من شؤون ادارتهم ، وقد تجلى في ايامنا هذه في مواقفهم العنيدة في المطالبة بالديون التي لهم كاملة وابتلاعهم الديون التي عليهم كاملة ، والاصرار على ان يبقوا مكتسين بالسلاح الى قة الرأس وان يعروا خصومهم منهُ الى الخمص القدم ، بل ان هذه الخلة فيهم ظهرت بثوبها القشيب في عصبة الامم في جلساتها الاخيرة عند ما قدّم مندوب فرنسا تقريره عن سورية فانبرى لاعضاء العصبة ان يقابلوه بالتقارير التي قدّمت عن العراق وانتهت في اكتوبر الماضي بانتظامه عضواً فيها ، وان يتبينوا الاسباب التي ادّت الى تراجع سورية تحت ارشاد الفرنسيين . وان كانت هي السابقة عى العهد العثماني . فما اعجب هذا الارشاد الذي يحاول عبثاً ان يسوق شعباً راقياً الى الضلال والاضمحلال

وعلى كل حال فالعبرة البليغة المستخلصة من الثورة الفرنسية ومن تلك الطبقة الفرنسية العظامية التي حاولت ان تمتص دماء الناس من غير عوض وعلى رأسها البلاط ومشروعاته الباهظة واستبداده اللامتناهي وعدم مبالاته بمطالب الامة هي مثل العبرة التي خلفتها لنا القيصرية الروسية الظالمة وعهد آل رومانوف في القرن الحاضر : دماء مهراقة وخراب شامل وثورة عاصفة لم تبق ولم تذر ، ومن العجب العجاب ان يرى المتتبع تباشير الشيوعية فجّة في الثورة الفرنسية كما يراها ناضجة في الثورة الروسية ، فقد قام في فرنسا في تلك الايام رجل ثوري اسمه (فرانسوى اميل بابوف) فنشر مذهبه السياسي فاذا هو لا يختلف في شيء عما حمله في صدره (لينين) و (تروتسكي) و (ستالين) وهذا التشابه والحق يقال درس تاريخي يجب ان يتلى كل يوم على رأس الحكومات العنيدة المتصلبة التي ليس في منهاجها شيء يسمى مصلحة الشعب المحكوم ، والثورة اذا حدثت تكون مثل القنبلة اذا خرجت من فوهة المدفع — لا سلطة لاحد عليها . قال (بابوف) في صحيفته يومئذٍ [1] . «لماذا يتكلم الناس عن الشرائع وعن الاملاك ؟ فالاملاك هي حصّة المغتصبين والشرائع هي من عمل الاقوياء اما الشمس فتشرق على الجميع واما الارض فليست ملكاً لاحد . اذهبوا اذن يا اخواني وانشروا الفوضى في هذا المجتمع الذي لا يلائمكم واقلبوه رأساً على عقب ودكوه دكّا وخذوا منه كل شيء يعجبكم ، لان الغنيمة هي من حق المعدم . وهذا ليس كل شيء ايها الاخوان والاصدقاء . بل

[1] The Revolt Against Civilization, Stoddard, P. 137

اذا وجدتم الموانع الدستورية عقبة في سبيل مساعيكم الكريمة فاسحقوا هذه الموانع وهذه الدساتير من غير تردد واذبحوا الغنائة والنبلاء والمموهين بالذهب من اصحاب الملايين وسائر هؤلاء الاشرار الذين يقاومون سعادتكم المشتركة . انتم الشعب الحقيقي الوحيد القمين بان يتمتع بخيرات هذا العالم : وعدل الشعب عظيم وجليل مثل الشعب نفسه فكل مايعمله مشروع وكل ما يأمر به مقدس »

وتعرف خطط (بابوف) من الجمل الآتية المستخلصة من بيانه الذي وضعهُ ليلة الثورة التي اعدها وسماه (بيان المتساوين) فقد جاء فيه من العبارات الجنونية الملتهبة قوله « ايها الشعب الفرنسي لقد عشت خمسة عشر قرناً ترسف في العبودية ومانشأ عنها من شقاء ، ومضى عليك ست سنوات (وهي سنوات الثورة) لم تكد في غضونها تتنفس وانت تنتظر الاستقلال والسعادة والمساواة — المساواة التي هي اول غاية في الطبيعة واول حاجة في الانسان وهي العروة الوثقى لكل اجتماع بشري مشروع

«نعم اننا نريد من الآن فصاعداً ان نعيش ونموت على قدم المساواة كما ولدنا ونحن ننشد التساوي الحقيقي او الموت — هذا مايجب ان نحصل عليه وسننال هذه المساواة حتماً بالغة مابلغت قيمتها . والويل ثم الويل لكل من يقيم نفسه حائلاً بيننا وبينها

«اما الثورة الفرنسية فليست الاَّ مقدمة فقط لثورة اخرى اعظم منها واكثر هيبة وستكون الاخيرة . واننا سنرضى بكل شيء في سبيل المساواة ونمنح كل شيء للتمسك بها وحدها . واذا اقتضى الحال فلتضمحل جميع الفنون على شرط ان تبقى لنا المساواة الصحيحة

« واخيراً لتختف الفوارق المثيرة للاحقاد بين الاغنياء والفقراء ، والكبراء والصغراء والاسياد والمسودين والحكام والمحكومين ولايبقى فرق في البشر عدا الفرق المبني على العمر وعلى الجنس . ولما كانت حاجات الناس وملكاتهم واحدة فلتكن لهم تربية واحدة وطعام واحد وهم جميعهم يقنعون بشمس واحدة وهواء واحد فليم يأتى لا يكتفي كل واحد منهم من الطعام بنفس الحصة وبنفس النوع ؟

« ايها الفرنسيون افتحوا عيونكم وقلوبكم لفيض السعادة الدوار واعترفوا معنا بجمهورية المتساوين واعلنوها في الخافقين»

لقد اطلنا فيما نقلنا من بيان (بابوف) عن ثورة التساوي هذه وعذرنا في ذلك اننا اردنا ان نبين ما تجنيه الحكومات الظالمة على المجتمع من الجنايات التي لايعرف احد عواقبها ، وغير نكير ان ثورة (بابوف) هذه خنقت في المهد ولكن الآراء التي انطوت عليها بقيت مشتعلة تحت الرماد الى ان سنحت لها الفرصة فاندلعت السنتها تحرق الاخضر واليابس وتهدد النظام الاجتماعي من اساسه